ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 09، العدد: 01 (2024) ص 219 - 227

الحكاية الخرافية في الموروث الشعبي الجزائري
و تصوراتها الذهنية في نفسية الطفل

The fairy tale in Algerian folklore
And its mental perceptions in the child's psyche

فضيلة قيطوم *
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
ص ب 166 اشبيليا، 28000 المسيلة - الجزائر-
fadhila.guittoum@univ-msila.dz

عمر جادي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
ص ب 166 اشبيليا، 28000 المسيلة - الجزائر-
amar.djadi@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/02/04
تاريخ القبول:
2024/05/01

الكلمات المفتاحية :
- ✓ **الحكاية الخرافية**
- ✓ **الموروث الشعبي**
- ✓ **نفسية الطفل**

الملخص:

التراث الشعبي بطاقة هوية المجتمعات، يعكس التنوع الثقافي المادي و اللامادي على غرار الحكاية الخرافية التي تعتبر إنتاجا شعبيا قديما، تجاوزت الرسم و التدوين إلى التعبير بالجانب الصوتي المتميز بالتنوع في المواضيع حسب البيئة المنتجة لها، أضف إلى ذلك فإن الحكاية الخرافية في الموروث الجزائري تمتاز بالإغراق في الخيال والتناقل وسرعة الانتشار عن طريق السرد والمشافهة ، كما ترتبط بالجانب النفسي للطفل، فهي تحقيق للحرية و ممارسة الخيال والانفلات من رقابة الشعور، كما تترك جملة من التصورات الذهنية في نفسية الطفل على مستوى الذاكرة و الذكاء و الإدراك و الشعور، ثم إنها ذات تأثير ترفيهي وتربوي وأخلاقي إذ تستدعي الإحياء و الاهتمام بعثا للقيم و الفضائل الأخلاقية في نفوس الأطفال .

Article info

Received
04/02/2024
Accepted
01/05/2024

Keywords:
- ✓ *Folk tale*
- ✓ *Popular heritage*
- ✓ *Child psychology*

Abstract :

Folk heritage is the identity card of societies. It reflects material and cultural diversity unlike the popular folk tale which is considered an ancient popular production. It went beyond drawing and blogging to expression in the audio aspect which is characterized by the diversity of topics according to the environment where it was produced. Moreover, the folk tale in the Algerian heritage is characterized by imagination, transmission, and rapid spread through narration. It is also linked to the psychology of the child. It is the realization of freedom, the practice of imagination and escaping the control of feeling. It also leaves a set of mental images in the child's psyche at the level of memory, intelligence, perception, and feeling. Then it has an entertaining, educational and moral effect, as it needs revival and interest in raising moral values and virtues in the souls of children

* فضيلة قيطوم

1. مقدمة

الحكاية الخرافية أحد أشكال التعبير الفني في الموروث الشعبي والأكثر بروزا في الثقافة الإنسانية لمختلف المجتمعات على غرار بلاد المغرب العربي، وقد أشارت مختلف الدراسات إلى ثراء المادة الخرافية المتداولة بين الجماعات الناطقة بمختلف اللغات واللهجات، باعتبارها منتوجا تراثيا شعبيا تكتسي صفة التنوع في المواضيع، وهذا رجوعا إلى خصوصية البيئة المنتجة سردا ورواية .

لقد أبدعت الشعوب قديما في طور سذاجتها أدبا لا يفوقه الأدب الفصيح في شيء بل زاده شموخا رغم مرور الزمن وموجات التهميش، وتجاوز اللغة رسما وتدوينا اكتفاء بالجانب الصوتي، وحقق هذا اللون الأدبي التحدي وفرض الاستمرارية شعرا أو نثرا، فالحكاية الخرافية كانت ولازالت أروع ممثل للأدب الشعبي .

وباعتبار الأدب إبداعا إنسانيا على غرار باقي العلوم الاجتماعية يقتضي التأثير والتأثر بمختلف العلوم والمتغيرات التي من شأنها إثراء الموضوع الأدبي سواء الجانب الفلسفي أو التاريخي أو النفسي، وهذا يسري على موضوع الحكاية الخرافية .

ومنه تعد فئة الأطفال أكثر الفئات العمرية التي يوليها الباحثون اهتماما بالغا بفن القص الأدبي، وهذا اللون النثري المرح يحقق للطفل نوعا من الحرية وممارسة الخيال والتحرر من مختلف القيود والانفلات من سلطة رقابة الشعور فالحكاية الخرافية الجزائرية كغيرها من الأنماط الأدبية تتسم بالتنوع والانتشار والذيوع والخصوصية وعليه نطرح الإشكالية التالية: ما هي الحكاية الخرافية؟ وكيف يمكن دراستها نفسيا؟ وما هي تصوراتها الذهنية في نفسية الطفل؟

وللخوض في هذه الإشكالية المطروحة اعتمدنا فرضية وجود علاقة بين الحكاية الخرافية وعلم النفس والتأثير الذهني والنفسي في الطفل، مع اعتماد المنهج التاريخي لقدم وأصالة الحكاية، والنفسي للتركيز على الجانب الوجداني و تحليل المحتوى لتبيين العلاقة بين المتغيرات، وتناولنا موضوع الحكاية الخرافية لأنها ذات علاقة وطيدة بالعادات والتقاليد ، فالحنين إلى حجر الجدات وسعة وبساطة اللمات يبعث الرغبة في إحياء هذا اللون الأدبي الشعبي من التراث الجزائري.

2.الحكاية الخرافية

إن الحكاية الخرافية تنصرف إلى أدب العامية مجهولة المؤلف أو ما يسمى بالأدب الفلكلوري، والدافع الرئيسي من تجميعها وتدوينها في أشكالها اللغوية المستعملة المحافظة على التحف النادرة كشواهد عيان على حقبة تاريخية معينة، تتحدث بلسانها وتنقل أحاسيسها وأفكارها وتقاليدها بلغتها المتميزة، ويرى محللو الروايات الشعبية أن بناءها اللغوي هو مفتاح لحقائق نفسية عميقة وعلامة ثراء معرفي غزير ومؤشر لأنماط فكرية معقدة.

فالحكاية من الناحية اللغوية «من قولك حكيت فلانا وحاكيته فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه وحكيت عنه الحديث حكاية» (ابن منظور، د ت . ص: 690) و«المحاكاة المشابهة، يقال فلان يحكي الشمس حسنها ويحاكيها بمعنى» (ابن منظور، د ت . ص: 960) ، أما من الناحية الاصطلاحية عرفها "فون ديرلاين" بقوله:«...الحكاية الخرافية صورة معقدة مركبة ترجع إلى أقدم العصور الإنسانية ولا تزال نشطة كذلك في عصرنا مستمدة منه دواعي حياتها»(فريدريش فون ديرلاين،د ت.ص: 69) وعرفها "صالح بن حمادي"بقوله: «هي قصص وحكايات تعودت النساء في سائر أنحاء العالم أن يحكينها للأطفال في السمر أثناء الليل »

(صالح بن حمادي، 1983 . ص : 122)، أما "ليلى روزالين قريش" فتقول: «وباختصار قصة الخرافة الشعبية قصة اخترعها الخيال الشعبي، أضاف لها الخيال الشعبي جانبا خرافيا للتعبير عن عقيدة خاصة يؤمن بها الناس أو فكرة معينة تتحمس لها الجماهير» (ليلى روزلين قريش، 1998 . ص : 144) واختصرها "عبد المالك مرتاض" بقوله:«الخرافة حكاية تقص حوادث خارقة منسوجة من مادة الخيال المحض»(عبد المالك مرتاض ، 1977. ص : 08).

ونشأة الحكاية الخرافية تطابق وجود الإنسان في العالم ، ويرجع ذلك إلى الحياة البدائية الأولى، التي جعلت الإنسان يعبر عنها بمخيلته الساذجة ولغته البسيطة وينسج حولها الكثير من الخوارق، وذلك في مختلف الحضارات، ففي الحضارتين الهندية والصينية كانت الحكاية متنوعة الموضوعات يغلب عليها طابع الخوارق وسيطرة عنصر البطل، ومعظم مواضيعها لا تمت للواقع بصلة فهي مرتبطة بعالم اللاهوت وعبادة الظواهر الطبيعية، واتسامها بطابع الإيقاع خاصة في الهند، وأشهرها حكايات "هاملت" امتازت بالتروي والإيقاع السريع، كما يقبل المجتمع الصيني على "الفابولات" القصيرة المتميزة بأصالة الحس في التأليف، ومتعة التصوير و السرد وسعة الخيال ووضوحه ، وتعتبر بابل بوابة الحضارة العربية والمتوفرة على ملحمة "جلجامش" البابلية المتضمنة الكثير من موضوعات الحكاية الخرافية من أغنيات وأبطال وحكايات الآلهة والأساطير، فالملحمة مستمدة من التصورات الشعبية والأقاصيص، وفي النصف الثاني من القرن 19 جالت في أدب مصر القديمة ومن أشهرها "حكايات ألف ليلة وليلة" القائمة على مبدأ التناقضات، وتعد مصر بلاد العجائب بالرغم مما أصاب كنوزها من ضياع في مجال الحكاية الخرافية فقد وصلتنا مدونة بأسمى أسلوبها الفني.

إن الحكايات تتقاطع في جملة من الخصائص والمميزات على غرار القدم والإغراق في الخيال فهي متحررة وتخرج عن الواقع المألوف وتعمد إلى الانفلات من الرقابة الفردية وسلطة المجتمع، مع امتيازها بالعالمية فهي نتاج جمعي تتناقلها الجماعات بسرعة باعتبارها فنا أدبيا عابرا للقارات مسيطرا عليه عنصر البطولة. وهذا ما جاء في مجهودات "أحمد كمال زكي"يرى «الحكاية بقايا أساطير في القدم» (أحمد كمال زكي، 1979. ص : 188) .

و أضاف "مرسي الصباغ" «إن المضامين المشكلة للحياة الخرافية بأخيلتها وخوارقها تجسيد لإدراك الإنسانية في طفولتها»(مرسي الصباغ ، د ت . ص : 85) . و سر سرعة انتشارها التحرر من قيد النص عن طريق الشفوية والسرد الذي يحترفه الرواة على اختلاف تصنيفهم سواء محترفون أو غير محترفين، والسعي إلى إضفاء الجو السحري في آدائهم على حد الفئة المستمعة (الصغار و الكبار)، وتتنوع الحكاية حسب موضوعها من أسطورة وحكاية الجان، و التي تدور حول شخصيات دينية كقصة سيدنا سليمان مع ملكة سبأ، وقصة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل، وغير الدينية ذات الأبطال التاريخيين مثل شخصية "جازية الهلالية" لاتصافها بصفات خارقة للعادة على حد تعبير "عبد المالك مرتاض" «هي حكاية تقص حوادث تاريخية يقوم بوظيفتها أبطال في معظمهم تاريخيون ولكن الخيال الشعبي أضفى عليها مسحة من الضخامة والجلال مما جعلها تخرج من نطاق القيم التاريخية إلى نطاق الخيال» (عبد المالك مرتاض، 1977. ص : 09) .

الحكاية كائن حي عابر الحدود بدون جواز سفر، نرى فيها ملامح إنسانية متشابهة ومتشابكة تنمو وتحيا في أرجاء دنيانا مثيرة ممتعة صالحة لكل زمان ومكان ويكفي فخرا أنها من تأليف الشعب و ثمرة تفكير جمعي، وصولا لوجدان سامعيها وقرائها دون استئذان وتجاوز الأبواب المغلقة و الأسوار العالية، وهو الحال بالنسبة للحكاية في الموروث الشعبي الجزائري الرائجة في السبعينيات، وتعد البدايات

الأولى لقصة الطفل المكتوبة وساعدها في ذلك مساهمة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع وركزت على ترجمة القصص الغربية، وهذا حتى مطلع الثمانينيات، وبعدها استفحل الإنتاج والإبداع الجزائري في مجال كتابة قصص الأطفال على حد تعبير "العيد جلولي" (العيد جلولي، 2003 . ص : 60) ، والسبب في تأخر وصولها للجزائر هو الاستعمار الفرنسي وتدهور الأوضاع على جميع الأصعدة، ولم يتحسن دورها إلا بجهود الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين وبعض المفكرين لأن جل المحاولات كانت قاصرة ولم تستوف شروط الحكاية كما وكيفا وطباعة وإخراجا، وتعتبر جهود ومحاولات "محمد السعيد الزهراوي" وما كتبه "محمد العابد الجيلاني" و"أحمد رضا حوحو" و"أبو القاسم سعد الله" و"محمد صالح رمضان" وغيرهم الأرضية التي مهدت لفن القص الجزائري، وبعد الاستقلال أخذت منحى إيجابيا من شأنه إثراء الساحة الفكرية والأدبية خاصة ما تعلق بأدب الطفل على يد "رابح خدوسي"وحكاياته الأميرة السجينة ، بقرة اليتامى، لونجة، الفرسان السبعة، عروس الجبال والأستاذة "عائشة بنت المعمورة" اللذين عملا على إعادة صياغة الحكاية الجزائرية وإعدادها للطفل قدوة ، حيث نجد ملامح من "سندريلا" في "بقرة اليتامى"، و يعتبر "خضر بدور" و"عزة عجان" و"عبد الوهاب حقي" و"حسن رمضان فحلة" ممن أجادوا فن الكتابة للطفل الجزائري ، واعتمادهم تدوين الحكايات القائمة على التربية وتعديل السلوك الاجتماعي والتنوع وخاصة المرتبطة بالحيوان لتعلق الأطفال وميولهم الفطري لها على لسان "محمد رجب النجار" «حكايات قصص الحيوان تتجاوز تقويم العادات وتدعيم التقاليد أو تأكيد القيم والمثل العليا أو تشريح أنماط السلوك أو تسديد اعوجاج خلقي أو اجتماعي»(محمد رجب النجار، 1995.ص : 209)، بالإضافة إلى قصص الخيال العلمي وقصص الفكاهة وقصص المغامرات مثل "السند باد البحري" "لقاسم بن مهني" .

إن الحكاية الخرافية لون بارز من ألوان الأدب الشعبي ذات صلة بعلم النفس الدارس للجوانب النفسية ، على غرار مدرسة التحليل النفسي بريادة "سيغموند فرويد" الذي حاول البحث في الحكاية من جانبين مركزا على اللاشعور الفردي ومبرزا الدور الكبير لمفعول الخيال واعتباره المتنفس لممارسة المشاركة في أحداث الحكاية الخرافية عن طريق أحلام اليقظة وأحلام النوم، إلى جانب "يونج" الذي جعل منها تصوير للضمير الجمعي القائم على المشاركة في نسج الحكاية الخرافية يعكس فعالية اللاشعور الجمعي، و الإلمام بالعوامل النفسية المساهمة في صياغة التراث الشعبي (الانفعالات وردودها) ،وفي هذا الشأن يقول "الحسين عبد الحميد أحمد رشوان"«الإسقاط اليونجي هو كالتسامي الفرويدي لا من حيث المعنى ولكن من حيث أنه السبيل إلى الإبداع، فهو العملية النفسية التي يحول بها الفنان تلك المشاهد الغريبة التي تطلع عليه من أعماقه اللاشعورية يحولها إلى موضوعات خارجية يتخيلها الأغيار (الغير)» (حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، 1993. ص :27)، لما تلعبه الجلسات العائلية من دور بارز في توريث الحكاية الشعبية حيث تروى في التجمعات فهي رؤى شخصية وذاكرة جماعية، إلى جانب دور المرافق ووسائل الإعلام والاتصال في تدوين التراث الحكائي على غرار التلفاز والبث الإذاعي القائمين على تنظيم حصص قارة تقوم بقص حكايات للأطفال رائعة المواضيع نجدها تستهوي حتى الكبار خاصة مع جودة الإخراج وتوظيف الصوت والصورة و تجسيد الملامح السيميائية للحكاية وشخوصها، فالطفل ينجذب بشدة لحكايات الطبيعة والحيوان من خلال الألوان والأصوات والألبسة و ملابسات الحكاية المسافرة بعالم الطفل إلى الخيال، و للمسرح و التمثيل روح حية تستهوي الكثيرين في إحياء هذا اللون الأدبي و استحداث مسارح متنقلة بين الأرجاء تأثيرا في النفوس، فنجد مسرحية "جحا" من أحب ما قص ومثل إلى يومنا هذا والمستلهمة من "ألف ليلة وليلة" الشهيرة لتكون الأولى بتاريخ المسرح الجزائري نجاحا لتوظيف اللغة العامية من طرف

"علالو ودحمون" لسهولة الاستيعاب وتوفرها على المبنى والمعنى والمغنى والتشويق الذي يحقق الترفيه والتسلية وإيصال المغزى وترسيخ قيم اجتماعية هادفة.

إن سرد الحكاية سماعا أو مشاهدة أو تمثيلا يترك جملة من التأثيرات الذهنية والنفسية فكريا ولغويا وإثراء أساليب الحوار تأثرا بلغة الشخوص ومحاولة التقليد والتقمص، وأخذ القيم والعبر الراقية (الشجاعة، الإقدام، المغامرة، الحيطة والحذر والفطنة) تطويرا للتصورات الذهنية وتنمية القدرات العقلية ذكاء وإدراكا من خلال التساؤلات في النفس البشرية، فالحكاية متنفس من الهموم والضغوطات النفسية والتحرر من السلطة (الأنا والأنا الأعلى) خاصة عند المواقف الطريفة للتسلية والمرح والتنفس عن طريق الأحلام لبعث الثقة بالنفس والطمأنينة والتحدي وتقوية الشخصية داخل الأسرة أو خارجها، وتحمل في طياتها معاني تهذيبية ودروسا في الأخلاق تجسيدا للفضائل ونبذ الرذائل ونصرة الحق على الباطل وجعلها قيما اجتماعية راسخة في ذهن الطفل ترغيبا وترهيبا وهما أجدى تربويا من الضرب والزجر، ومنهجا في حل المشكلات المستعصية .

نخلص إلى القول: إن الحكاية الخرافية تراث قديم أنتجته الشعوب للتنفس من الضغوط والحاجة إلى الترفيه والتسلية وممارسة الإبداع وإطلاق العنان للخيال وتعلق مختلف فئات المجتمع بها خاصة عالم الطفل إدراكا وحسا ذات العلاقة الوثيقة بالتحليل النفسي الذي يمثل جوهر الحكاية تأثيرا وتأثرا ، وتبقى الحكاية بلسان الجدة أروع هدية للأحفاد.

ومن التوصيات المقترحة إدراج الحكايات الخرافية ضمن البرامج التربوية بهدف شحن وغرس فنون التراث في عقول الأجيال و توريثه ، وتحصينهم ضد الغزو الثقافي و بثها في البرامج التلفزيونية والإذاعية وجعلها حصصا قارة ،وإحياء حكايات "حديدوان" الهادفة، والسمو بالمسرح الحكائي الطفولي، والاستفادة من التطور التكنولوجي والإعلامي سمعيا وبصريا في نشرها على أوسع نطاق و مواكبة التطورات باستعمال الهواتف الذكية، اللوح الالكتروني و غيرها ، مما يزيد تعلق الطفل بالموروث الشعبي خاصة إذا كانت الحكايات خاضعة للرقابة (حسن الاختيار حسب السن والجنس والقيم) فالصغير على قدر الفهم ينتفع والكبير على قدر الإدراك يعتبر

3. التفسير النفسي لحكاية بقرة اليتامى :

الملاحظ طغيان دور الأم فيها منذ أول وهلة طيلة تطور أحداث الحكاية، إذا يمثل النمط الأصلي للأم الكبرى المدخل الواضح لدراسة هذه الحكاية وتحليلها من منظور علم النفس التحليلي(الوجه الإيجابي الام الضحية ، الوجه السلبي زوجة الأب)

تتجسد ايجابية النمط أو سلبيته من خلال ثنائية (الجمال/القبح)، فالأثر السلبي لنمط الأم الكبرى يظهر من خلال التشوهات التي تصيب الأبناء فمتن الحكاية لا يكاد يذكر قبح ابنة زوجة الأب الشريرة، أمّا الولدان اللذان تمتعا بحماية النمط الأصلي في صورته الايجابية فقد تغنت الحكاية طويلا بتمتعهما بالجمال و حسن البناء الجسدي .

وقد أبرزت الحكاية ملمحا ثالثا كثير الأهمية، متميزا بدوره بين ايجابية النمط وسلبيته،وهو التبعية المطلقة للأم والخضوع لها خضوعا تاما (ثريا التيجاني، د ت . ص :100) .

إلى جانب النمط الأصلي ، تبرز "بقرة اليتامى" نمطا أصليا آخر لا يقل أهمية عن النمط السابق، وهو "القرين" "**Animus**" و"القرينة" "**Anima**" (الموروث الشعبي و قضايا الوطن، 2006 . ص : 187، 188) ، لقد مثل الشقيقان اليتيمان هذا النمط، كل منهما بالنسبة للآخر بحيث جسدت الفتاة نمط "القرينة" بالنسبة للطفل بينما جسد الولد نمط القرين بالنسبة للفتاة، وقد تميزت قرينة

الفتى بالملمح الايجابي الواضح، فساعدته على اجتياز الصعوبات و مكنته من النضج النفسي وتغليب الشعور في النهاية، وتجاوز مرحلة سيطرة اللاشعور، بينما مثل "القرين" بالنسبة للفتاة القوى السلبية التي كانت تشدّها دائما للمرحلة اللاّشعورية والتي كانت تكبح سرعة نموهما الجسدي والنفسي وتعرضهما للخطر، وتخلق العراقيل في سبيل تطور قواهما النفسية .

وتسمية القرين و القرينة بالأخ و الأخت في التراث الشعبي العربي أمر معروف عند الدارسين المتخصصين تقول الدكتورة "نبيلة إبراهيم": « وهذا القرين، أو القرينة يطلق عليه في الاصطلاح الشعبي الأخ أو الأخت فهو جزء خفي في الإنسان، مرتبط به وملازم له، يعد جزء من محتوى اللاشعور، يمكن أن يكون له أثره السلبي أو الايجابي، وفقا لدرجة الوعي »(نبيلة إبراهيم، 1974.ص: 145).

إن الطفل المستمع للحكاية يجد فيها تعبيرا عن التطلعات النفسية التي يعانيها ويعيشها في مختلف مراحل حياته بانتقاله من مرحلة سيطرة اللاشعور إلى مرحلة انبثاق الوعي و تبلوره بصفة تدريجية بقول "برونوبتلهايم" بخصوص ما يتركه الاستماع للحكاية الخرافية في نفسية الطفل :«لكي يستطيع أن يضبط مسائل النمو النفسية أي التغلب على الخيبات النرجسية، ولكي يصبح مؤهلا لرفض تبعية الطفولة، والتعبير عن شخصيته ، فالقيمة العالية للحكايات الشعبية تكمن في الأبعاد الجديدة لمخيلة الطفل الذي يعجز بمفرده عن التوّصل إليها فتساعده على توجيه حياته، ووجوده بشكل أفضل ». (الراوية وريدة لسعد من مواليد 1925) .

4.التأثير النفسي للحكاية الخرافية أثناء العرض و بعده :

إن ملابسات عرض الحكاية الخرافية له وقع كبير في النفوس، فلمّة وخصوصية الجلسة الحكائية خاصة في حضرة الجدّة أو كبير العائلة يعطيها نفسا مميزا ومليئا بالإيحاء ومفعما بالتخيلات و إفساح المجال للخيال الطلق، فأثناء عرض "بقرة اليتامى" نجد كل الأسماع مصغية وكل الأنظار مشدودة إلى الراوي فالعيون مسلطة على ملامح القائم بالعرض والأداء، مما يرحل بالحاضرين إلى عالم الخيال، ويترك آثارا عديدة على مختلف النفسيات ،خاصة الأطفال حيث تبدأ التساؤلات و تزيد الاحتمالات والتوقعات، فالطفل المستمع أثناء سماعه لمقطع: « اقتلوا أمكم ...راحت لاحت يدها في المزود لدغوها العقارب ومصولها صباعها...وماتت» فهنا تبدأ المشاعر في التأثر فيتبادى لذهن الطفل فكرة فقدان الأم فيجد نفسه يوشك على البكاء فتتوتر أعصابه وتضطرب حركاته ويأخذ في التقدم من حجر الجدّة (الراوي) شعورا بالخوف من فقدان الأم ومن يحب خاصة أن الطفل في هذه المرحلة يلعب دور الشخص التابع الذي لا يستطيع فك الارتباط بالأم بالدرجة الأولى، ومقاطعة الحكاية بنوع من التساؤلات التي تخالج الطفل من حين لآخر،مثل السؤال عن كيفية إقناع زوجة الأب لأبناء ضرتها بقتل أمهما، و السؤال عن الكيفية التي استطاع بها الولدان إمساك العقارب المؤذية والخطيرة، مما يولد في نفوس الأولاد الرعب وعدم الغفلة عن خطورة هذه الأنواع من الزواحف،ومن هنا نتلمس تنمية القدرات الذهنية للطفل خاصة الفطنة و تيقظ الذكاء الفكري.

تتواصل العلاقة على الأخذ والعطاء وإثارة الحوار والنقاش على مختلف وقائع الحكاية بين الراوي والمستمعين، و المستمع وذاته لسعة الخيال في إفساح المجال للتوقعات والتخيلات، فالطفل أثناء عرض "بقرة اليتامى" خاصة أبناء البيئة الريفية يتصور البقرة التي يعرفها ويحبها مكان بقرة الحكاية، فالطفل الذي يعيش في جو تتوفر فيه الملابسات (بقرة، الريف، الحقول، الرعي، الحيوانات المفترسة، الغابة، العين، الشجر، الوادي، الساقية، الغزال، الحصان، البئر...)، جميعها معطيات تعطي جوّا مميزا للحكاية الخرافية وترك بالغ الأثر في نفس الطفل خاصة مع معايشة الأحداث وتقمص الأدوار و ملائمة البيئة .

ويتواصل الارتباط تجاه الراوي لاستعماله التشويق في سرد الأحداث واعتماده لغة إيحائية معبرة مثلا تقطيب الحاجبين في مواقع الغضب، ملامح التعجب و الحيرة، ضرب الكف على الكف، نبرات الصوت المختلفة بين الخافتة والقوية ذات النقرة لإثارة الخوف ولفت الانتباه ومن ذلك « جاء الغراب عاقب عليهم، قالهم:الحما، العما »، فيه نوع من الزجر إعطاء الحل لأخذ الماء في الغربال والتفوق على شروط زوجة الأب الماكرة، وهذا يستدعي الفطنة والتدرب على تخطي الصعاب و دعوة ملحة للأخذ بنصائح الكبار على محمل الجد.

وفي المقطع التالي: «... ومن بعد غرست مشطتها و قالتلها :اعلاي يا سجرة أُمَّا وأبي، بلاد الغوالة والهوالة كلاتني، المشطة ولات شجرة طلعت فيها »، يمتزج الشعور بالحيرة والاستغراب من قدرة و سحر المشط للالتزام بأوامر " لونجة " و مساعدتها، أما في: «... لونجة أختي الطناجر غلات و المواس مضات والغزال بن أمك في الممات»، تُخِيل ويتهيأ للطفل والسامع الجّو كأنه وليمة، وما يتعلق به من استعدادات، وفي :« ردت عليه أختو في قاع البير، قاتلوا ابن لحنش على ركبة وابن السلطان على ركبة »، شعور بالخوف والرعب يجعل الطفل منطويا ومنكمشا وشد أطراف الجدة وتخيل الموقف والاضطرابات النفسية من تقليم الأظافر لعدم الشعور بالأمان، والتلفظ بألفاظ دالة على ذلك مثلا:"آخاه! " "آما !"، "قولي والله! " ،واستمرار الحكاية رفقة التساؤلات دليل على الانبثاق في أحداثها لروعة و احترافية أدائها وخلق عنصر التشويق فيها .

وفي « تيس، تيس راس العوراء في التليس، اينعل بوبليس وكالين بنيتهم »، وهنا يتنفس المتلقي ويرجع بذهنه إلى الواقع مع الفرح بانتصار الأخوين على مكر زوجة الأب وابنتها، وتفوق الخير على الشر والمكر والخداع وهنا ترغيبا للطفل في سماع المزيد منها بإصرار وانتباه، وبعدها يعمل على سرد الحكاية بطريقته الخاصة تقليدا للجدة متأثرا بها ،مما يساعده في تنمية قدراته الذهنية وبناء شخصيته النفسية و إثراء الرصيد اللغوي و المعرفي و اكتسابه سعة البيان وفصاحة اللسان .

إن الحكاية الخرافية متنفس و فسحة لإطلاق الخيال والتحرر من كل القيود والسلطات الشخصية والذاتية أو الاجتماعية، فبعد سماع الطفل لحكاية "بقرة اليتامى"، و معايشته أحداثها يُمنح طاقة على ترسيخها في ذهنه وذاكرته، فطريقة إلقائها و زمن روايتها يبقي مطبوعا في فكره ولا يفارقه، كما سبقت الإشارة إلى التأثيرات أثناء الأداء، و كذا بعد سماعها أثناء نوم الطفل ليلا لتُلاحظ التأثيرات فيما بعد.

فالطفل ينزع عنه ثوب الإدراك والعقل كسائر المخلوقات بعد الاستسلام المطلق للنعاس والاستغراق في النوم، ويمتثل لخياله وأحلامه ويستجيب لأوامر اللاشعور، فيبدأ بالحركة الخفيفة في نومه وتتعدد الوضعيات فتارة يرسم ابتسامة جميلة وخفيفة على شفتيه استحسانا لموقف أو حدث، وتارة أخرى يعمل على رؤيتها كمشهد حقيقي يشاهد الأحداث وشخصيات الصور حسب رغبته متخيلا بقرة يعرفها في الريف، مع رسم صورة للأخوين على أنه أحدهما وأخته ترافقه، وتصور زوجة الأب امرأة قبيحة الشكل والمظهر وشريرة، فيرسم لها ملامح في جو قريب جدّا إلى ما سمعه بلسان جدته.

فالطفل بخياله يمر على العديد من المواقف حسب تطور أحداث حكاية "بقرة اليتامى" فقد ينكمش في فراشه و يطابق ركبتيه إلى صدره، تخوفا من موقف أو مشهد فيها و نتيجة تعلقه بأمه يجزع لمجرد السماع بخبر أذيتها فما بالك عند سماعه أو رؤيته لفقدانها فهي بمثابة الروح الثانية في جسده وواقعه ، وفقدانها يشعره بالوحدة الفظيعة التي لايستطيع غيرها سدّ فجوة فراقها .

وتتوالى حركات التغير على الطفل النائم فقد يتصبب عرقا نتيجة معايشته موقفا مثيرا للهلع مثلا الهروب من الضبع الذي يريد الإيقاع بالأخوين وافتراسهما، فيخال نفسه يجرى ويلهث وقلبه يدق بسرعة كبيرة جراء الموقف الخطر. وتبلغ درجة التوتر الذروة بالبكاء بعد الأنين مستغرقا جهدا كبيرا حتى يهدأ ويرجع للواقع وهذا كله يعود إلى تأثير اللاشعور عند تخيله لمشهد الحنش بوسبع روس، فتتصاعد موجات الخوف والرعب مما يدفعه إلى البكاء والصراخ .

وقد تتطور موجات التأثير عند الأطفال بعد سماع الحكاية الخرافية إلى درجة التبول في الفراش بغض النظر عن السّن فقدرة التحمل تختلف من فرد إلى آخر .

وتستمر التأثيرات النفسية مدة بعد العرض، على الطفل بتلفظه ألفاظ الحكاية بأساليب مختلفة محاولا تقمص الأدوار و تقليد الجدة، مثلا قوله:"اذبح واربح"،"الحمى، العمى"، وقيامه ببعض الحركات الدالة على الأحداث،كاستعمال السبابة للتحذير ،وإثارة الفطنة و أخذ الحذر واليقظة.

كما أنه قد يهتف بعبارة "تيس تيس العوراء في التليس"، فيجري و ينط من مكان إلى آخر، معايشا أحداث الحكاية، ونجد بالغ التأثير على نفسية الطفل وسلوكه إذ يبني شخصيته من المعطى الطبيعي ومن المكتسب الاجتماعي لأنه ابن بيئته على قدر ما هو ابن والديه متأثرا بالأمور المحيطة به (الفرد ابن المجتمع)، فيسعى إلى صقلها في مخيلته بمساعدة الأهل وترشيدهم ويخرج بجملة من الأنماط السلوكية والشحنات المعنوية بناء على استحسان الفضائل ونبذ الرذائل و إشباع الأجيال بتراث الأجداد المادي و اللامادي باعتباره مادة علمية هادفة منتجة.

5.خاتمة :

إن الحكاية الشعبية تصوير للعنصر الجمعي يعكس فعالية اللاشعور الجمعي ، ومن ثمة تناقلتها الشعوب وتعلقت بها، وكانت لها تأثيرات عديدة على الأفراد منها ما هو نفسي ومنها ما هو ترفيهي ، وفي كل الحالات وسيلة تعمل على تنمية القدرات العقلية وتنمي قدرات الذكاء والإدراك كما أنها بمثابة المتنفس من الهموم والضغوطات التي تشنج العضلات الذهنية للفرد .

أضف إلى ذلك فالحكاية الشعبية الخرافية ترتبط بالجانب التربوي الأخلاقي لأنها تحمل في طياتها معاني تهذيبية من شأنها الدعوة للتمسك بالقيم الأخلاقية الفضيلة واستهجان الرذائل والحث على محاربتها .

لهذا كله تبقى الحكاية الشعبية بأنواعها قريبة من قلوب وعقول الأطفال بالرغم من وجود الوسائل الترفيهية المتنوعة .ويبقى الحنين إلى سماعها يخالج النفوس بغض النظر عن السن والجنس وتبقى متميزة عن باقي فنون الأدب .

قائمة المراجع :

أ– المؤلفات:

1– ثريا التيجاني.(دت). **دراسة اجتماعية لغوية للقصة الشعبية في الجنوب الجزائري، وادي سوف نموذجا.**

الجزائر: دار هومة.

2– حسين عبد الحميد، أحمد رشوان. (1993). **الفلكلور و الفنون الشعبية** . مطبعة الانتصار .

3- صالح بن حمادي.(1983). **دراسات في الأساطير و المعتقدات الغيبية**. تونس: دار أبو سلامة .

4- العيد جلولي.(2003). **النص الأدبي للأطفال في الجزائر** . الجزائر : دار هومة .

5- ليلى روزالين قريش.(1998) . **القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية .

6- مرسي الصباغ . (دت) . **القصص الشعبي العربي في كتب التراث** . دار الوفاء للطباعة و النشر.

7- ابن منظور. (دت) .**لسان العرب المحيط** . بيروت : دار لسان العرب .

8- نبيلة إبراهيم . (1974) . **قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية** . بيروت : دار العودة .

ب- المؤلفات المترجمة :

1- فريدريش فون ديرلاين. (دت) . **الحكاية الخرافية. نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها**. ترجمة نبيلة إبراهيم . مراجعة الدكتور

2- عز الدين إسماعيل. القاهرة: مكتبة غريب.

ج- المجلات :

1- أحمد كمال زكي.(1979) . **الأساطير** .مجلة التراث الشعبي، العدد 05 . بغداد : دار الجاحظ .

2- عبد المالك مرتاض.(1977). **الحكاية الخرافية في الغرب الجزائري** مجلة التراث الشعبي. العدد العاشر. بغداد : دار الحرية للطباعة و النشر.

3- محمد رجب النجار.(1995).**حكايات الحيوان في التراث**.مجلة عالم الفكر.المجلد 24. العدد 01 ،02 .الكويت .

د- المحاضرات :

1- **الموروث الشعبي وقضايا الوطن**. (2006) .محاضرات الندوة الفكرية السادسة (الملتقي الوطني للموروث الشعبي بالوادي، الجزائر .

هـ - الرواة :

1- الراوية وريدة لسعد من مواليد 1925، بأولاد أبراهم ، دائرة رأس الوادي ، ولاية برج بوعريريج .